

التراسل الحسي في شعر ابن زيدون

د. أحمد صالح الزعبي

أستاذ مشارك/ قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة مؤتة

أ.د. إبراهيم منصور الياسين

أستاذ / قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة الطفيلة التقنية

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تجلية ظاهرة التراسل الحسي في شعر ابن زيدون، وبيان أثرها في تشكيل الصورة الفنية لديه؛ وذلك بالوقوف على نصوصٍ شعريةٍ تبرز فيها أنماط التراسل الحسي، التي تمنح شعره عمقاً وثراءً، وتكسبه أبعاداً دلاليةً وجماليةً وفنيةً وبلاغيةً. وقد جاءت الدراسة في مقدّمة ومحورين هما: - المحور التطبيقي: يتناول مفهوم التراسل الحسي من وجهة نظر عدد من النقاد الغربيين والعرب، ويبيّن مدى تأثيره في توسيع الدلالة، وتعميق المعنى. - المحور الإجرائي: يتضمّن دراسة تطبيقية لظاهرة التراسل الحسي في شعر ابن زيدون، وبيان مدى تأثيره في لغة الشاعر، وأسلوبه الخاص في بناء صورته الشعرية، والتعبير عن معانيه وأفكاره، ونقل مشاعره وأحاسيسه للمتلقّي.

الكلمات الدالة: التراسل الحسي، والانزياح، والاستعارة، والصورة البلاغية.

Sense Correspondence in Ibn Zaidoon Poetry

Dr.Ahmed Saleh Al-Zoubi

Associate Professor / Department of Arabic Language and Literature -
Faculty of Arts- Mu'tah University

Dr. Ibrahim Mansour Al Yassin

Professor / Department of Arabic Language and Literature -
Faculty of Arts- Tafila Technical University

Abstract

This study aims at exploring sense correspondence in Ibn Zaidoon poetry and showing its influence in creating the artistic image. This comes through investigating types of sense correspondence Ibn Zaidoon's poems, which enriches his poetry and endows it with several semantic and aesthetic dimensions. The study consists of an introduction and two major frames: The Theoretical Frame: it explores the concept of sense correspondence as proposed by several western and Arab critics, and shows its influence in enriching the meaning and implications.

Application: it includes an applied study of the concept of sense correspondence in Ibn Zaidoon's poems, showing its influence on the poet's method of creating poetic images and expression of meaning and ideas.

Key words: sense correspondence, Deviation, Metaphor, Imagery.

المقدمة:

التّراسل الحسّي (Sense Correspondance) من أبرز المفاهيم النّقدية الغربية الحديثة، التي نالت عناية كثير من الدّارسين والباحثين من الناحيتين: النّظرية والتّطبيقية؛ وذلك من خلال الدراسات المتعددة التي قاموا بها حول هذا الموضوع⁽¹⁾، فكان لها أثر كبير في إغناء الدّرس النّقدّي الحديث وتطوره، ورفده بمصطلحات ومعارف جديدة أسهمت في الكشف عن دقّة الأسلوب، وعمق المعنى، وجمال التّصوير، وروعة الإبداع. تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على مفهوم التّراسل الحسّي في شعر ابن زيدون، وبيان دوره في تشكيل الصّورة الفنيّة لديه، وابتكار المعاني الجديدة ذات الأبعاد الدّلالية العميقة والخيالات الواسعة المؤثّرة في المتلقّي من خلال الامتزاج الوظيفي بين الحواس في أداء المعنى المقصود.

وحتى تصل الدّراسة إلى غايتها فقد اعتمد الباحثان على المنهج الاستقرائي، وأفادا من بعض معطيات المنهج الأسلوبي، فرصدا من خلالهما النّصوص التي تُمثّل الظّاهرة الأسلوبية، وقاما بتحليلها تحليلاً دقيقاً بيّن أبعادها الشكليّة والمضمونيّة، ثم استخلصا بعض النّتائج التي توصلوا إليها. وقد ختما الدّراسة بقائمة المصادر والمراجع، التي أغنتها، ورفدتها بمعلومات ثرة غزيرة.

1) ينظر: أحمد، محمد فتوح: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1978م، ص133-143 و329-343، وهلال، محمد غنيمي: النّقد الأدبي الحديث، القاهرة: دار نهضة مصر، 1997م، ص395-403، الصائغ، عبدالإله: الخطاب الشعري، الحداثوي والصورة الفنية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999، والصايغ، وجدان: الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث: رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003م، ص30، 87، 151، واليافي، نعيم: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، تقديم: محمد جمال الطحان، ط1، دمشق، 2008، صفحات للطباعة والنشر، ص158-168، والوصيفي، عبد الرحمن: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ط1، القاهرة: مكتبة الآداب، 2003م، ص17-58، وزايد، علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ط5، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008م، ص78-80، وشريف، محمد إسماعيل: تراسل الحواس في القصيدة الدرامية في الشعر العربي المعاصر في مصر، رسالة دكتوراه، جامعة المنيا، كلية دار العلوم، 2018، ص8، ورمضان، أحمد: "بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم: نماذج تطبيقية"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 1، كانون الثاني، 2007م، ص1-16، أمجد، حميد عبدالله: نظرية تراسل الحواس، الأصول، الأنماط، الإجراء، المركز العلمي العراقي، بغداد، 2010، وعنوز، كاظم: "تراسل الحواس في شعر الشيخ أحمد الوائلي، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد6، 2007، ص167-176، والياسين، إبراهيم: "تراسل الحواس في شعر ابن حمديس الصقلّي"، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 140، السنة 35، 2017م، ص185-223.

أولاً: المحور التّظييري: مفهوم التّراسل الحسيّ

التّراسل الحسيّ في أبسط تعريفاته هو "وصف مدركات كلّ حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى، فتُعطى المسموعات ألواناً، وتصير المشمومات أنغاماً، وتُصبح المرئيات عاطرة"⁽¹⁾، وهو نوع جديد من المجاز، بحيث يُستعمل للشيء المسموع ما أصله للشيء الملموس أو المرئي أو المشموم، ويُستعمل للشيء المشموم ما من شأنه أن يُستخدم للشيء المرئي أو الملموس أو المسموع وهكذا⁽²⁾، ويمثل التراسل الحسيّ إعادة خلق مكونات اللغة في النفس الإنسانية والتمكّن من صياغة الفكرة بقالب فني يترسم في المخيلة ويسند إلى الحواس التي تقوم بالأداء الوظيفي للأفعال على نحو غير مألوف في اللغة المعيارية المتداولة.

والتّراسل الحسيّ كما أشار أحد الدّارسين هو "ضرب من البلاغة يلجأ إليه الشّاعر لابتكار صور فنيّة جديدة، وخلق معانٍ عميقة تُثير المُتلقي وتُدْهشه"⁽³⁾، ويُسكّل انزياحاً عميقاً وانحرافاً يمنح المخيلة جوّاً إيحائياً رحباً، وتحليقاً في أجواء من الوهم الجميل الذي يحقّقه مثل هذا الخرق التّراسلي بين الحواس"⁽⁴⁾، وعدّه عدد من

1) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص395، وينظر: زايد، علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص81.

2) ينظر: هيكل، أحمد: تطور الأدب الحديث في مصر: من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، القاهرة: دار المعارف، 1987م، ص330.

3) الياسين، "تراسل الحواس في شعر ابن حمديس الصقلّي"، ص 189.

4) المنصوري، أحمد: اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، صنعاء: إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، 2004م، ص256.

الدّارسين نوعاً من الاستعارة، ودرجة من درجاتها⁽¹⁾، غايته تمكين الشّاعر من "إفراغ المحتوى النفسي الذي يستعصي على الدّلالة اللّغوية"⁽²⁾، ويقوم بالربط بين مدركات الحس المشترك وصور المحسوسات⁽³⁾.
وقد حاول عدد من الدّارسين العرب المحدثين تتبّع مفهوم التّراسل الحسيّ في التّراث العربيّ، فوجدوا أنّ للقرآن الكريم أسبقية في هذا الموضوع، واستهدوا عليه بآيات قرآنية تدلّ عليه وتوضّحه، كما وجدوا في شعرنا العربيّ القديم أمثلة كثيرة تُمثّل هذا المفهوم، وقد رصد عدد من نقادنا القدامى ودارسينا المحدثين بعضها، ووقفوا عليها بالتعليق والتّحليل والتوضيح⁽⁴⁾، وسماه بعضهم (تأوب الأعضاء)⁽¹⁾.

1) ينظر: مندور، محمد: الشعر المصري بعد شوقي: الحلقة الثالثة، القاهرة: دار نهضة مصر، ص32، وكوهن، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: د. محمد الولي ومحمد العمري، ط1، الدر البيضاء، دار توبقال: المغرب، 1986م، ص124، والصايغ، وجدان، الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث: رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير، ص151.

2) أحمد، محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص46، وينظر: هلال، النقد الأدبي الحديث، ص395.

3) علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص87، وانظر: شريف محمد إسماعيل، تراسل الحواس في القصيدة الدرامية، في الشعر العربي المعاصر في مصر، ص13.

4) ينظر: الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود (ت 297هـ): الزهرة، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ج1، ط2، الزرقاء: مطبعة المنار، 1985م، ص146-154، والرّفاء، السريّ بن أحمد (ت 362هـ): كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تحقيق: د. حبيب حسين الحسيني، ط1، بغداد: دار الرسالة، 1982م، ص151-158، العسكري، أبو هلال، (ت 395هـ): كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص268، ابن الصيرفي، أبو القاسم، (ت 542هـ)، كتاب الاقتضاب، تحقيق وليد قصاب، عبدالعزيز المانع، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982، ص226-230، والقاشاني، عبد الرزاق بن أحمد (ت 730هـ): كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر: شرح تائية ابن الفارض، تحقيق: د. أحمد فريد المزيدي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م، ص249، والخفاجي، شهاب الدين (ت 1069هـ): ریحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، ط1، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، 1967م، ص176-177؛ والوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص17. الهلالي، صادق، والليبي حسين: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم، ط2، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1421هـ، ص13، الخرشة، أحمد: أسلوبية الانزياح في القرآن الكريم، ط1، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص89، إبراهيم، صاحب خليل: التراسل في الشعر العربي القديم، مجلة أقلام، الأعداد (6،7)، 8 حزيران 1994، رمضان، أحمد: "بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم: نماذج تطبيقية"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 1، كانون الثاني،

ثانياً: المحور الإجرائي: ظاهرة التراسل الحسي في شعر ابن زيدون

أشار بعض الدارسين المحدثين إلى أنّ ظاهرة تراسل الحواس تتمثل إحدى الظواهر الشعريّة البارزة في ديوان ابن زيدون، تستحقّ الوقوف عندها ودراستها، وتجليّة أبعادها الفنية والموضوعية، وقد ذكروا بعضاً من الأمثلة التي تتمثل تلك الظاهرة، ثم قاموا بتحليلها، والوقوف عند آثارها في خلق معانٍ جديدة ومعبّرة عمّا يختلج في ذات الشاعر من مشاعر وأحاسيس⁽²⁾.

وقد جاءت هذه الدراسة استكمالاً لتلك الجهود في دراسة تلك الظاهرة، وتجليّة مفاصلها الأساسية، وتقديم تحليلات وافية ودقيقة لنماذج شعرية ذات علاقة، وبيان أثرها في تشكيل صور فنيّة لها أبعاد دلاليّة جديدة تتسجم مع الواقع النفسي والانفعالي لدى الشاعر، وتؤثّر في المتلقّي.

التبادل بين حاستي السمع والبصر

يقول ابن زيدون مادحاً أبا الحزم بن جهور⁽³⁾:

أَحِينَ زَفَّ عَلَى الْأَقَاقِ مِنْ أَدْبِي غَرَسَ لَهُ جَنَاهُ يَانِعُ النَّعْرِ؟
وَسِيلَةَ سَبَبًا — إِلَّا تَكُنْ نَسَبًا — فَهَوَ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرَ
وَبَائِنٍ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ وَشَيْءٍ الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعْلَمُ الطَّرْرِ⁽⁴⁾
يُسْتَوْدَعُ الصُّحُفَ لَا تَحْفَى نَوَافِحُهُ إِلَّا خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِي الصُّرْرِ

2007م، ص1-16، الياسين، إبراهيم: "تراسل الحواس في شعر ابن حمديس الصقلّي"، مجلة العربية

للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 140، السنة 35، 2017م ص189.

(1) ابن الصيرفي أبو القاسم، كتاب الاقتضاب، ص226.

(2) ينظر: الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص95 وما بعدها، حيث أورد ستة شواهد شعرية، وقدم لها تحليلات عميقة أفادت منها هذه الدراسة، وشنوان، يونس: اللون في شعر ابن زيدون، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، إربد، 1999، ص109-117، حيث أورد عدداً من الشواهد الشعرية مع تعليقات بسيطة على بعضها.

(3) ابن زيدون، أحمد بن عبد الله المخزومي (ت 493هـ)، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، الطبعة الثالثة، 2004م، ص343.

(4) بائن: فائق بالحسن والزينة، والوشي: الثوب الملون المنقوش، والطرر الأطراف.

فالشاعر يُصوّر أدبه وما فيه من مدح وثناء لابن جهور بالغرير الجميل، الذي طاب جناه، وأينع ثمره، "غزير له جناه يانع الثمر"، وبالثوب الملون، الذي طرّزت أطرافه فجمل منظره، وحسن مظهره "وشّي المَخاسير منه مُعلّم الطرّز"، وبالمسك الفواح، الذي انتشر عطره، ولم تختفِ رائحته "لا تخفى نوافحه إلا خفاء نسيم المسك في الصرر"، وهو بذلك يُبادل بين أربع حواس هي: السمع، والذوق، والبصر، والشم؛ فيصير أدبه/تناؤه للممدوح متذوقاً كالثمر الينع، ومرئياً كالثوب المطرّز، ومشموماً كالمسك الفواح، وغايته من ذلك أن يفخر بنفسه وأدبه من خلال مدح ابن جهور.

إنّ إشراك أكثر من حاسة في رسم هذه الصورة يستثير شبكة من الإحساسات المرتبطة بكل حاسة، فتتصهر مع بعضها في بوتقة واحدة؛ لتخلق صورة جديدة مبتكرة. وهذا ما عبّر عنه جان كوهن بقوله: "تجاوب الحواس، أي تداعي إحساسات منتمية إلى سجلات حسية مختلفة"⁽¹⁾. وهنا نجد إحساساً مسموعاً يتجاوب مع الإحساس المرئي والشمّي تارة، ومع الإحساس الذوقي تارة أخرى في صورة مركبة عميقة تلغّي فيها الفواصل بين الحواس المختلفة فتتراسل وتتجاوب؛ وهذا ما عمّق الصورة، وأكسبها أبعاداً رمزية إيحائية بارعة.

ويقول في رسالة مسهبة إلى المظفر بن الأفطس أمير بطليوس⁽²⁾:

وَعِنْدِي لِشُّكْرِكَ نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقٌ فِيهَا اللَّائِي التُّوْمُ
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ

فهو يرسم صورة فنية لشكره/إطرائه في الممدوح، ويجسده على هيئة قلادة منظومة من الدر الثمين، والجواهر الفريدة، واللآلئ اليتيمة المنسقة "نظم العقود" تارة، وعلى شكل ثوب مطرّز مخطّط أنيق تارة أخرى "بُرْدَ الشَّبَابِ"، معتمداً على التراسل الحسي بين السمع والبصر، فيصير إطراؤه/شكره وهو شيء مسموع معنوي قلادة، أو ثوباً، وهما شيان مرئيان محسوسان؛ وذلك ليظهر جمال ذلك الإطراء/الثناء، وبديع سبكه، ولطيف تناسقه، وحسن صياغته.

(1) كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص124.

(2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص476.

ويقول مجيباً الوزير أبا بكر بن القصيرة على أبيات أرسلها له⁽¹⁾:

يَا سَيِّدِي الْمُسْتَبِدَّ مِنْ مَقْتِي بِخِطَّةٍ فَاتَتْ الْحِسَابَ سَعَةَ⁽²⁾
وَأَفَانِي الْعِقْدُ زَيْنَ نَاطِمُهُ وَالْوَشْيُ لَا رَاعَ حَادِثٌ صَنَعَهُ⁽³⁾
بَثَّتْ فِيهِ الْبَدِيعُ مُنْتَقِيَا كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرَّبَا قِطْعَهُ

فالشاعر يرسم صورة فنية تقوم على الاستعارة تارة "وافاني العقد"، والتشبيه تارة أخرى "كالروض"؛ ليماثل فيها بين قصيدة أبي بكر من جهة، والعقد والروض من جهة أخرى، معتمداً على التراسل بين حاستي السمع والبصر، فيجعل المسموع وهو "الشعر" مرئياً وهو "العقد" و "الروض"؛ ليؤكد للمتلقي أن شعر صاحبه منظم منضد بديع كالعقد، أو الروض متعدد الألوان والأشكال والعمور. وبذلك امتزجت حاستا السمع والبصر، بالإضافة لحاسة الشم في بناء الصورة؛ لتظهر ملامح الجمال في شعر أبي بكر، الذي جمع بين جمال الشكل وجمال الجوهر. هذا إذا ما علمنا أن حاستي "السمع والبصر من أهم وسائل تذوق الجمال، وهما منفذان إلى القلب"⁽⁴⁾.

ومثله قوله مناجياً أبا القاسم بن رفق⁽⁵⁾:

وَأَكْسُ مَتْنِ الْقِرْطَاسِ دِيْبَاجِ لَفْظٍ يَبْهَرُ الْفِكَرَ مِنْ نَظْمٍ وَنَثَرٍ
عُرَّرَ مِنْ بَدَائِعِ لَا يَشُكُّ الدُّهْرُ فِي أَنَّهَا قَلَائِدُ دُرِّ

فابن زيدون يرسم صورة تشبيهية لقصائده، ويماثل بينها وبين قلائد الدرّ البديعة السبك، الدقيقة النظم، معتمداً على نظرية التراسل الحسي بين السمع والبصر؛ فيصبح المسموع أو المقروء وهي "قصائده المبدعة" شيئاً مرئياً وهي "قلائد الدر"؛ ليظهر دقيق نظمها، وحسن إبداعها، وجمال بنائها.

(1) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 279.

(2) المقّة: الحب، والخطّة: الأرض التي تنزلها ولم ينزلها أحد قبلك.

(3) رجل صنع البيدين: حاذق، وصنع اللسان: بليغ.

(4) رمضان، "بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم": ص 8.

(5) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 318.

ويقول⁽¹⁾:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصَادِفُ خُلُوءَ لَدَيْكَ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدٌ؟
رَعَى اللَّهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِي وَأَجْفَانُ عَيْنِي بِالذُّمُوعِ شَوَاهِدُ

فهو يخاطب المحبوبة متسائلاً بألم وحرقة عن موعد للقاء معها في مكان خالٍ؛ كي يشكو لها ما به من لوعة الحب وحرارة الشوق، اللذين ستفضحهما عيونه الباكية؛ لدرجة أنها ستري بعينها حبه وشوقه بسبب الدموع الغزيرة، التي ستتهمر لحظة اللقاء، وكأنها أفواه تنطق من شدة صبابته، وحرارة شوقه. وهنا تصير عيون الشاعر/ دموعه فمًا يشهد على حبه، ويُعبّر عن شوقه. وترتكز هذه الصورة على الانزياح الوارد في قوله: "وَأَجْفَانُ عَيْنِي بِالذُّمُوعِ شَوَاهِدُ"؛ إذ أسند الشاعر فعل النطق للعين، فصارت لساناً ناطقاً شاهداً عما بداخله.

ويقول في إحدى مقدماته الغزلية⁽²⁾:

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَّتْهُ لَحْظَةٌ عَنِّي كَأَنَّهَا وَالرَّذَى جَاءَا عَلَى قَدَرٍ⁽³⁾
فَهَمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكَ بِي إِنَّ الْجَوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْخَوَرِ

فهو يرسم صورة فنية تقوم على الانزياح الوارد في قوله: "فَهَمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكَ لِي" القائم على التراسل الحسي بين البصر والسمع؛ إذ يسند الشاعر فعل الحديث للعين، ويجعلها لساناً كاشفاً لمعنى الهوى، ولواعج الصدر؛ إذ إن "طرف المحبوبة يوحي بحديث الهوى، والشاعر خبير بفهم هذا الحديث الشيق الذي ينبعث من حور العين، فالمسألة تعدت الإخبار بالعين أو حديثها إلى الحوار المتبادل بين حبيبين وفهم هذا الحوار"⁽⁴⁾.

التبادل بين حاستي السمع والذوق

1) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص213.

2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص338-339.

3) لحظة عنن: نظرة عارضة.

4) الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص97.

يقول ابن زيدون متغزلاً⁽¹⁾:

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخُلُقٌ مُحَسَّنٌ وَظَرْفٌ كَعَرْفِ الطَّيْبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ
يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثِ تَلْدُهُ كَمِثْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقْبِ الْهَجْرِ

فهو يُقدِّم صورة لمحبيبته وقد جمعت الحسن من أطرافه مادياً ومعنوياً؛ فهي حسناء فاتنة ناعمة مكحولة العينين، لها هيئة حسنة، وظرف كرائحة الطيب ولذة الخمر "خُلُقٌ مُحَسَّنٌ وَظَرْفٌ كَعَرْفِ الطَّيْبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ"، تزيئها طباع جميلة، وأخلاق عذبة "لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ"؛ ما يجعله يعلل نفسه ويؤملها بحديث لذيذ منها، تُشبه لذته لذّة المنى بوصل المحبوبة، واللقاء بها بعد طول هجر "يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثِ تَلْدُهُ".

ويعتمد ابن زيدون في تشكيل هذه الصورة على الصورة الحسية الذوقية في قوله "لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ"، جاعلاً الشيء المعنوي غير المحسوس وهو الأخلاق مادة متذوقة لذيدة، وعلى التبادل بين حاستي السمع والذوق في قوله "مِنْ حَدِيثِ تَلْدُهُ"؛ فيجعل ما كان مسموعاً "وهو الحديث" متذوقاً؛ ليعبر عن روعة كلام تلك المحبوبة، وسحره، وأثره في نفسه، فتعكس إحساسات مركبة من خلال تذوق الحاستين لأحاديثها اللذيذة، وأخلاقها العذبة. إنَّ الفعل (يُعَلِّلُ) يكشف عن صورة تُصحح عن مدى إعجاب الشاعر بمحبوبته، وتقديره لها، وتعلقه بها؛ "فالارتواء من الشراب اللذيذ أتى مقابلاً للوصل بعد الهجر، وكأنَّ فراق المحبوبة يُعادل حالة الظمّ، والوصل منها هو الارتواء الذي تلذّه نفسه ويطيب له قلبه"⁽²⁾. وهذا يؤكد أنّ "إشراك حاستي السمع والذوق في بناء هذه الصورة لا يعني مجرد إيراد الألفاظ المُعبّرة عن الحاستين، بل إنّه استثارة شبكة من الإحساسات المرتبطة بكل حاسة، وهي تنصهر جميعاً كي تخلق الصورة الاستعارية المتجددة"⁽³⁾.

ويقول مادحاً أبا الحزم بن جهور⁽⁴⁾:

اللَّهُ جَارُ "الْجَهْوَرِي" فَطَالَ مَا مُنِيَتْ صَفَاةُ الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ⁽¹⁾
مَلِكٌ دَرَى أَنَّ الْمَسَاعِي سُمْعَةٌ فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلْسَّمَاعِ

(1) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 141.

(2) الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص 128.

(3) الصايغ، الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث: رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير، ص 151.

(4) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 464.

شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ عَنْهُ الْكَمَائِمُ فِي الضَّحَاءِ الْمَاتِعِ⁽²⁾

فالشاعر يرسم صورة لممدوحه الأثير ابن جهور، يُظهر فيها قوته، التي ابتليت صخور الدهر منها "مُنِيَّتْ صَفَاةُ الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعٍ"، كما يُظهر مساعيه الطيبة، التي يستلذها السامع والمتحدث "فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلسَّامِعِ"، ويظهر أيضاً خصاله الحميدة، التي تُشبه الزهور جمالاً وعتراً وجنياً "شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ"، معتمداً في إبرازها على المزج بين حاستي السَّمْعِ والدُّوقِ؛ إذ يجعل الكلام عن مساعيه، وهو شيء مسموع شراباً طيباً، وهو شيء متذوق، وهذا المزج بينهما يُعبّر عن لذة الحديث عن مساعي الممدوح، وأثره في نفس المتلقي بحلاوة وطعمٍ ما يدفعه لحبه والاقتراب منه.

كما يعتمد ابن زيدون في إبراز صورة ممدوحه على الصورة الحسية المركبة (البصرية الشمية الذوقية)، التي تقوم على التشبيه تارة "شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ"؛ فيشبهه طباع الممدوح وخصاله، وهي شيء معنوي بالزهور الجميلة المعطرة الطيبة اليناعة، وعلى التشخيص تارة أخرى "تبسّمت عنهُ الكَمَائِمُ فِي الضَّحَاءِ الْمَاتِعِ"؛ إذ يجعل الكمائيم التي تغلف الزهور إنساناً حياً يبتسم عنها ويكشفها فيظهر بهاؤها، ويفوح شذاها؛ وهذا ما يمنح الصورة قوة، ويكسبها عمقا دلاليّاً. وقد امتزجت فيها الوظائف المعنوية بين الحواس.

ويقول مهنتاً المعتمد بن عباد بالظفر في بعض الحروب⁽³⁾:

قُلْ لِسَاقِينَا: "يُجِرُّ أَكْوَسَهُ" وَلِشَادِنِنَا: "يَصِلُ قَطْعَ الْوَوْتَرِ"⁽⁴⁾

حَسْبُنَا سُكْرٌ جَنَّتْهُ دِكْرٌ دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِي يَجْنِي السُّكْرَ⁽⁵⁾

فهو يرسم صورة فنية يُماثل فيها بين دِكْرِ الممدوح الطيبة ولذّة الخمرة، معتمداً في إبرازها على التراسل بين حاستي السَّمْعِ والدُّوقِ؛ فيُضفي على المسموع "الدِّكْرُ/ الأحاديث" صفة المتذوق "السُّكْرُ"؛ ليعبّر بذلك عن

1) منيت: ابتليت، والصفاء: الحجر العريض الأملس، وقارع: ضارب.

2) شيم: طباع، والجنّي: اليناع، والكمائيم: وعاء الطلع، وما تغلف الزهور، والضحاء: النهار، الماتع: المرتفع.

3) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 553.

4) يجر أكوّسه: يرجعها، ويبعدها.

5) السُّكْرُ: الخمرة المستخرجة من التمر.

روعة تلك الذِّكْرِ وسحرها، وأثرها في نفسه وفي نفوس السّامعين، ويصبح التّذاكر عن الممدوح والحديث عن شمائله في مجالس الأُنس شراباً /خمرأً لذيذاً، ينفذ بسرعة في أعماق المستمعين نفوذ السُّكر في نفوس الشّاربين، فيطلبون المزيد منه؛ ليزدادوا سكرأً وانتشاءً، فتأثير هذا الحديث في نفوسهم يشبه تأثير السُّكر فيها؛ أي إنّ ذِكْر الممدوح من اللذة بمثابة الإسكار من الشّراب.

وهذا التّبادل بين الحاستين يُعبّر عن لذة الحديث، وأثره في نفس الشّاعر بالطعم المُسكر؛ فكلام النّاس عن ممدوحه وفضائله يُسكره لسحره وعذوبته، وهذا أمر مألوف في الاستعمال؛ لأنّ الذّوق جنس لحاسة السّمع أو كالجنس كما يقول عبد اللطيف البغدادي⁽¹⁾، فيقال حديث حلو وعذب ومسكر، ويُقال أيضاً ذقت الكلام، وذقت النّعم، وطاب الحديث ولذّ النّعم.

ويقول في مدح الوزير ابن جهور⁽²⁾:

وَتَنَاءً أَرْسَلْتُهُ سَأْوَةَ الطُّلَا
عَنِ عَن شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ
فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيْسِ وَلَا فَخْرَ
رَ وَفِيهِ مِرْأَجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

فالشّاعر يرسم صورة فنيّة يُبادل فيها بين ثلاث حواس هي: السّمع، والشّم، والذّوق، فيُضفي على المسموع "النّناء" /المدح صفة المرئي المشموم "ريحانة"، والمتذوّق "مِرْأَجُ كَأْسِ النَّدِيمِ"؛ ليعبّر عن عطر ثنائه لممدوحه وعذوبته، وأثره في نفوس السّامعين؛ فيصبح ثناؤه/مدحه في ظلّ الصّورة ريحانة الجلساء يتسامرون بها، ومزاج لكؤوس النّدماء يستلذّون سماعها، فتتوغّل بسرعة في أعماقهم وفي نفوسهم.

التّبادل بين حاستي السّمع والشّم

يقول ابن زيدون في مدح أبي الوليد بن جهور وقومه⁽³⁾:

تَقَدَّمَتْ لَكَ نُعْمَى زَادَهَا أَمْلِي
فِي جَانِبِ هُوَ لِلإِنْسَانِ مُتَجَعُّ(1)

1) ينظر: البغدادي، عبد اللطيف: مقالتان في الحواس ومسائل طبيعية، تحقيق: بول غليونجي، وسعيد عيدة، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1972م، ص87، الياسين، تراسل الحواس في شعر ابن حمديس الصقلي، ص207.

2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص362.

3) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص379-380.

مَا زَالَ يُونِقُ سُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا كَالْمُزْنِ تُونِقُ فِي آثَارِهِ التُّرَعُ
سُكْرٌ يَرُوقُ وَيُرْضِي طِيبُ طُعْمَتِهِ فِي طَيْبِهِ نَفَحَاتٌ بَيْنَهَا خَلْعُ
ظَنَّ الْعِدَا إِذْ أَعْبَتْ أَنَّهَا انْقَطَعَتْ هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ(2)
مَا غَاطَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مَدْحٍ فِي صَائِكِ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا كَنْعُ(3)

فهو يُصَوِّرُ شكره الذي تُظهِره نِعَمُ ابنِ جهور وفضائله بالمطر، الذي تُجَمِّلُ آثاره الرِّياض فتونق "كالمُزْنِ تُونِقُ فِي آثَارِهِ التُّرَعُ"، فيصير شكره / مدائحه جميل المنظر، طيب المذاق، عذب النِّفحات يُغِيظُ الأعداء "طِيبُ طُعْمَتِهِ وَفِي صَائِكِ الْمِسْكِ"، معتمداً في إبراز هذه الصُّورة على التَّبَادُلِ الحَسِّيِّ بين أربع حواس هي: السَّمْعُ، والبصر، والدُّوقُ، والشَّمُّ؛ فيصبح المسموع وهو الشُّكْرُ / المديح مرتبياً كالمطر، ومتذوقاً كالنَّمْر، ومشموماً كالمسك.

ويقول في رثاء أمِّ المعتضد بن عباد ومدح ابنها(4):

خَلَاتِقُ مُمَهَّاهُ الْفِرْنَدِ كَأَنَّهَا حَدَائِقُ رَوْضِ الْحَزْنِ جِيدَ فَايُنْعَا(5)
تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودِدِ تَخَالُ فَتِيَّتِ الْمِسْكِ مِنْهَا تَضْوَعَا
تَغْلَعُلُ فِي الْأَفَاقِ أَسْرَى مِنَ الصَّبَا وَأَشْهَرُ مِنَ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا

فهو يرسم صورةً فنيّةً يُمَاتِلُ فيها بين أخلاق الممدوح ابن المرتبة العذبة والأحاديث الطيبة عنه ورائحة المسك، معتمداً في إبرازها على التَّرَاسُلِ بين حاستي السَّمْعِ والدُّوقِ؛ فيُضْفِي على المسموع "الأحاديث" صفة المشموم "المسك"؛ لِيُعَبِّرَ بذلك عن جمال أخلاقه، وسمعته العاطرة، وشمائله العذبة، ويصبح الحديث عن تلك

1) رادها: تقدّمها، ومنتجع: مكان النجعة وهي المرعى.

2) أَعْبَتْ: تأخّرت حيناً.

3) صَائِكِ: لاصق، وكنع المسك بالثوب: لصق به.

4) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 587.

5) أمهى الصانع الشفرة: رققها، والفرند: رونق السيف ووشيه، والحزن: ما غلظ من الأرض.

الأخلاق والشّمائل في المجالس مسكاً متضوّعاً، فيغدو تأثيره في نفوس السّامعين كتأثير المسك؛ أي أنّ أخلاق الممدوح وشّمائله والحديث الطّيب عنها بمنزلة المسك من المشمومات.

ويقول معاتباً الوزير ابن عبدوس ومنذراً له⁽¹⁾:

أَبْنُ لِي: أَلَمْ اضْطَلْعْ نَاهِضاً بِأَعْبَاءِ بِرِّكَ فِيمَنْ نَهَضَ؟
أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدِيبِي نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيباً يُفَضُّ؟⁽²⁾

فهو يُعاتب ابن عبدوس عتاباً مرّاً، ويسأله بتعجب شديد عن سبب الجفاء الذي حصل بينهما، منكرّاً إياه بالعلاقة القديمة التي كانت تجمع بينهما، وبقصائده التي كان يرسلها له، وتغوج منها رائحة زكية عطرها كرائحة المسك "أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدِيبِي نَفْحَةً؟"، معتمداً في إبراز هذه الصّورة على نظرية التّراسل بين حاستي السّمع والشّم؛ إذ يصبح أدبه في ظلّ الصّورة مسكاً فتيته منثور، ورذاذه مصبوب، فتتضوّع منه نفحات عطريّة يستنشقها السّامع أو القارئ.

ومثله قوله مادحاً المعتضد بالله ومهنئاً إياه بعقد قرانه⁽³⁾:

جَهْدُ الْمُقْلِ نَصِيحَةٌ مَمْحُوضَةٌ أَفَرَدْتَ مُهْدِيَهَا فَلَا إِشْرَاكَأ⁽⁴⁾
وَتَنَاءٌ مُحْتَقِلٌ كَأَنَّ تَنَاءَهُ مِسْكَ بِأُرْدَانِ الْمَخَافِلِ صَاكَا

فهو يرسم صورة تشبيهيّة تقوم على التّبادل بين حاستي السّمع والشّم، فيصير المسموع، وهو التّناء مادة مشمومة كأنّها المسك تعطّرت به أردان المجتمعات، وفاح في أرجاء محافل الكلام.

وقوله⁽⁵⁾:

- 1) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 609.
- 2) نشي ريحاً طيبة: شّمها وانتشاها، ويفضّ: يفت أو يصب.
- 3) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 499-500.
- 4) الجّهد: الطاقة، وجّهد المقل: أقصى ما يستطيعه الضعيف.
- 5) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 614.

بَيَّي جَهْـوَرٍ! أَحْرَقْتُمْ بَجَفَائِكُمْ ضَمِيرِي فَمَا بَالُ الْمَدَائِحِ تَعْبَقُ؟

وهنا تتحوّل المدائح إلى مادة عطريّة تعبق بها المجالس.

ويقول مجيباً أبا العطف بن حي على أبيات أرسلها له⁽¹⁾:

أَفَدْتِي مِنْ نَفَائِسِ الدُّرِّ مَا أَبْرَزْتَهُ غَوَائِصُ الْفِكَرِ
مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنْتَ نَظِيرَتَهَا قِرَانَ سُمْ الْجُفُونِ لِلْحَوْرِ
أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ بَدَائِعُهُ فِي النَّظْمِ حَاذَتْ جَلَالََةَ الْخَطْرِ
أَعْطَرُ مَهْمَا سَرَى لَهُ نَفْسٌ مِنْ نَفْسِ الرَّوْضِ رَقٌّ فِي السَّحْرِ

فابن زيدون يرسم صورة تشخيصية للقصيد، ويراها على هيئة فتاة جميلة جذابة عاطرة تنافس قريناتها بجمالها وسحرها ورائحتها، التي تشبه رائحة الرّوض وقت السّحر أبدعها شاعر يسخّ خاطره بالنفحات العطرية؛ معتمداً على التّوافق بين حاستي السّمع والشمّ؛ فيجعل المسموع وهو الشّعْر مادة مشمومةً وفقاً لنظريّة التّراسل الحسيّ.

ويقول⁽²⁾:

فَمَا الشَّمْسُ رَقٌّ الْعَيْمُ دُونَ إِيَاتِهَا سَوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنْصَفُ⁽³⁾
قَعِيدُكَ! أُنَى زُرْتِ؟ نُورُكَ وَاضِحٌ وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَخَائِيكَ مُرْجِفُ⁽⁴⁾

فهو يرسم صورة فنيّة تقوم على التّراسل بين حاستي السّمع والشمّ، وترتكز على عنصر التشخيص؛ إذ يُصوّر الشّاعر (العطر) وهو مادة شميّة محسوسة إنساناً تماماً يكثر الكلام عن أوصاف تلك المحبوبة وجمالياتها وأخلاقها العاطرة، فتبدو الصّورة غريبة مدهشة؛ "فالعطر الذي يُدرك بحاسة الشّم نراه هنا كثير الكلام ومن ثمّ

1) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص275.

2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص527-528.

3) آية الشمس: حسننها ونورها، الجبين المنصف، الذي يعلوه الخمار.

4) النم: رفع الحديث على وجه الإشاعة والإفساد، رجف: تحرك واضطرب.

يُدرِك بحاسة السَّمْع، وكلام العطر ذو دلالة نفسية تتصل بالشاعر، فالذي يجعل العطر يتكلم فوحاً هو رائحة المحبوبة المعطرة أصلاً، فالشاعر لا يشم رائحة بقدر ما يشعر بفوح محبوبته وطيب رائحتها، كما أن العطر الفواح هنا عطر معنوي يختلف عن العطر المادي الذي تعرفه⁽¹⁾.

التبادل بين حاستي البصر واللمس

يقول ابن زيدون في إحدى مقدماته الغزلية⁽²⁾:

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عَطْفَاكِ؟⁽³⁾
هَلَّا مَرَّجْتَ لِعَاشِقِيكَ سُلاَفَهَا بِرُودِ ظَلْمِكَ أَوْ بَعْدُ بِلَمَّاكِ؟⁽⁴⁾

يعتمد الشاعر في البيتين السابقين على نظرية التراسل الحسي بين العين واليد في إبراز جمال تلك الفتاة وسحر نظراتها؛ فيجعل عينيها يداً ماهرة تجيد تقديم الخمر/ النظرات، وتصيب قلب العاشق؛ فتسكروه بنظراتها، فيتمنى منها أن تمزج تلك الخمر/ النظرات ببريق أسنانها أو عذب شفيتها. "قالجمال في التراسل هنا يتناسب تماماً مع الجو النفسي، فعين المحبوبة تدير السرور والبهجة، وهذا يتناسب مع جمالها المحض الذي يُسكر الناظرين"⁽⁵⁾.

التبادل بين حاستي البصر والشم

يقول ابن زيدون مهيناً المعتمد بن عباد بقدم وشفاء من مرض⁽⁶⁾:

إِنْ كَانَ أَسْعَدَ مِنْ وُصُولِكَ طَالِعٌ فَكَذَلِكَ أَيْمَنَ مِنْ قُفُولِكَ طَائِرٌ
أَضْحَى الزَّمَانُ نَهَارُهُ كَأَفْوَرَةٍ وَاللَّيْلُ مِسْكَ مِنْ خِلَالِكَ عَاطِرٌ

1) الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص 169.

2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 420.

3) الصبا: الشباب، وعطفاك: جانبك

4) السلاف: الخمر، والظلم: الأسنان البراقة، اللمى: سمرة في الشفة أو احمرارها.

5) الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص 168.

6) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 213.

فهو يرسم صورة جديدة ومبتكرة للزّمان بنهاره وليله، وقد اعتمد فيها على التّراسل بين حاستي البصر والشمّ؛ فجعل النّهار واللّيل وهما - مرثيان مشمومان - "نَهَارُهُ كَافُورُهُ" و"اللّيل مسك". وفي كلا التركيبين انزياح بين المسند والمسند إليه؛ إذ يُضفي الشّاعر العطور على المرثيات، فتغدو الصّورة غريبة مدهشة، وذات دلالة عميقة، تُوحى للقارئ بأنّ الشّاعر ينظر للزّمن في ظلّ عودة المعتمد وشفاته من المرض بعينٍ متألمة مبهجة؛ ولذا ارتبط بأجود العطور وأثمنها. وقد "كان توزيع أنواع الطيب منسجماً مع ألوانها؛ إذ جعل الكافور الأبيض للنّهار والمسك الأسود لليل"⁽¹⁾.

التّبادل بين حاستي البصر والذّوق

يقول ابن زيدون⁽²⁾:

إِنِّي بِصَرْفِ الْهَوَى عَنْ مُقْلَةٍ كُجِلْتُ بِالسَّخْرِ مِنْكَ وَخَدِّ بِالْجَمَالِ وَشِي
لَمَّا بَدَا الصُّدُغُ مُسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التَّسَالُمَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
لَوْ شِئْتُ زُرْتُ وَسِأكَ النُّجْمَ مُنْتَظِمٌ وَالْأَفُقُ يَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْعَبَشِ
صَبًّا إِذَا التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرِيٍّ جَفَا الْمَنَامُ وَصَاحَ اللَّيْلُ يَا فُرْشِي

فالشّاعر يرسم صورة فنيّة تقوم على الاستعارات الواردة في قوله: "التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرِيٍّ" و"جَفَا الْمَنَامُ" و"صَاحَ اللَّيْلُ"، معتمداً في إبرازها على التّراسل بين حاستي البصر والذّوق، إذ يجعل الأجفان فماً، والكرى مادة سائلة، فتشربها الأجفان وتتذوق طعمها، فيظلّ الشّاعر نتيجة ذلك ساهراً وقد جفاه المنام وصاح بوجهه اللّيل. وقد أضفى الفعل المستعار من حاسة الذّوق "التَّدَّتْ" على الأجفان دلالات التلذّذ بالصّحو في أثناء تذكّر جمال المحبوبة وعذوبة طباعها وصفاتها.

وتكمن روعة التّراسل الحسي في هذه الأبيات في "الصّراع بين ما تريد الأجفان وما يصعب على الشّاعر تحقيقه لها، فطيف المحبوبة وروعة جمالها تُبعد عنه النّوم، والشّاعر يعطينا دلالة تعلقه بمحبوبته من

(1) شنوان، اللون في شعر ابن زيدون، ص114.

(2) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص209-210.

خلال التراسل فالبرغم من لذة النوم بعد طول السهر إلا أن لذة الصحو مادام يفكر في المحبوبة تكون أكثر لذاجة⁽¹⁾.

وقد استخدم ابن زيدون في نصوصه الشعرية صوراً حسية متعددة تركز على نظرية تراسل الحواس،

ومنها:

1- الصور اللونية

يُلاحظ من خلال القراءة الفاحصة لديوان الشاعر، أنه يعتني بالصور الحسية اللونية اعتناء كبيراً، معتمداً في بنائها على التراسل الحسي؛ للتعبير عن المعاني والأفكار بصورة تستثير وعي القارئ، وتستقره للبحث عن جماليات تلك الصور ودلالاتها العميقة البعيدة، ومن ذلك قوله: (الليالي الغرر، والليالي البيض، الأيام السود، والأيام السود، واليد البيضاء، والنعمة الخضراء، والنعم الخضر، والأخلاق الخضراء، والزمان الأهم، والزمن الأحمر، وقرطبة الغراء)⁽²⁾. فهذه الصور المتحققة بفضل كلمة دالة على اللون هي استعارات مبتكرة⁽³⁾، وأن الميل إلى إبراز الأشياء المعنوية في صور محسوسة ملونة لا يأتي بلا قصد أو وعي؛ لأن "ارتباط المعنوي باللون يتكئ أساساً على إحياء اللون المستقرة في الذهن مع إحياءات السياق، سياق الجملة الشعرية وبالوقت ذاته مع أصداء النفس"⁽⁴⁾.

يقول ابن زيدون معزياً الأمير أبا الوليد بن جهور في أمه⁽⁵⁾:

أَعْمُرُ البُرُودِ البِيضِ فِي ذَلِكَ التَّرَى لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَتْنَاءَهَا البِيعَةُ الخُضْرُ
عَلَيْهَا سَلَامُ اللَّهِ تَتَّسِرُ تَحِيَّةً يُنَسِّمُهَا الغُفْرَانُ رِيحَانُهَا النُّضْرُ

فالشاعر يرسم صورة حسية بصرية تقوم على نظرية التراسل الحسي، وذلك في قوله: "البِيعَةُ الخُضْرُ"؛

فيسند اللون الأخضر، الذي يرمز للخير، والخصب، والنماء، والتجدد، والعتاء، ويحمل بُعداً روحياً خاصاً

1) الوصيفي، تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ص160.

2) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص371، 448، 448، 452، 169، 345، 577، 587، 392، 540، 157.

3) كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص127.

4) المنصوري، اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، ص256.

5) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص577.

لاتصاله بالنعيم والجنة في الآخرة"⁽¹⁾ إلى "النعم"، فتغدو- وهي شيء معنوي غير ملمسوس - مادة لونية بصرية تُظهر جمال الأعمال الطيبة، التي قدّمتها والدة الأمير، وعطرت بها حياتها بأطيب الآثار.

ومما يزيد هذه الصورة اللونية جمالاً وعمقاً دلاليّاً الانزياح الأسنادي الوارد في قوله: "يُنْسَبُهَا الْغُفْرَانُ رِيحَانُهَا النَّضْرُ"؛ إذ يصبح الزّيحان الأخضر النّضر/ النّعم والأعمال الصالحة إنساناً، ويصير الغفران مادة معطرة بفعل ذلك الزّيحان، فتتج عن ذلك صورة حسية مركبة: لونية حركية شمية، تستنفر عي المتلقي، وتحفّزه للبحث عن دلالاتها العميقة، ومحاولة إيجاد العلاقة بين الأطراف المكوّنة لها، ولعلّ هذا التركيب الحسي المشترك يجعل من إسناد لونٍ ما إلى شيء غير ملون، أو إلى أشياء غير محسوسة يبدو تحدياً مقصوداً في وجه العقل⁽²⁾، ليستكنه صورة جديدة مبتكرة بما تشفّ من معانٍ تثير وعيه وتدفعه للبحث في أعماق تلك الصورة بما تحمله من طاقات إيحائية مذهشة.

ويقول مهنتاً الأمير أبا الوليد بن جهور في عيد الفطر⁽³⁾:

تري منك سرّو الملّك في قشّف النّقى فَيُفْرِقُهَا مَرَأَى هُنَاكَ عَجَابُ⁽⁴⁾
فَأَبْلَ وَأَخْلِفُ إِنَّمَا أَنْتَ لِابِسِ لَهْذِي اللَّيَالِي الْغَرِّ، وَهِيَ تِيَابُ

فابن زيدون يرسم صورة لونية ترتكز على التّراسل الحسي والانزياح الدلالي، وذلك في قوله: "الليالي الغرّ"؛ فيسند اللون الأبيض، الذي يُوحى بالصّفاء، والنّقاء، والهدوء، والأنس، والأمل، والسّلام لـ"الليالي"، وينزاح بهذا التركيب عن مألوف اللّغة العادية، فيأتي بنعت غير متجانس مع منوعته؛ للتعبير عن حالة خاصة صار فيها اللون رمزاً له دلالاته الموحية؛ فالأعياد تری في جلال الأمير وبهائه مجتمعين مع التّشّف والزّهد والنّقى منظراً غريباً مذهشاً؛ فيدعو الشّاعر الأمير ليستبدل بها أعياداً أخرى بيضاء جديدة؛ ليديم الأمن والسّلام والنّقاء والأمل في البلاد.

1) مختار، أحمد، الدلالات الاجتماعية والنفسية لألفاظ الألوان في اللغة، سلسلة اللسانيات، تونس، العدد6، 1986، ص48.

2) ينظر: كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص127.

3) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص447-448.

4) السرو: المروءة والسّخاء، والقشّف: خشونة العيش وشدّته، وأبرق: أدهش.

2- الصّور الشّمّيّة

اهتمّ ابن زيدون اهتماماً كبيراً برسم الصّور الشّمّيّة، التي تعتمد على تبادل الحواس، وتراسل مدركاتها بصورة غريبة؛ وذلك في قوله: (عَزَفَ الرِّيحَ، وَأَرْجُ النَّعَاءَ، وَرِيحَانَ الحَفَاوَةِ، وَعَرَفَ الصُّبَا، وَنَفَحَاتِ المَنَى، وَنَفْحَ القَصَائِدِ، وَمَسَكَ الشُّكْرِ، وَمَسَكَ الرِّجَاءِ، وَعَطَرَ الأَصَالِ، وَالعَهْدِ وَرَدِ، وَالخِلَالَ نَرَجِسَ، وَالشَّفَاعَةَ عَنبرِ، وَالشِّيمَ زهورِ، وَالرِّضَا مَسِكاً⁽¹⁾؛ إذ جعل للنَّعَاءِ أَرْجَاءً، وَلِلحَفَاوَةِ رِيحَاناً، وَلِلصُّبَا عَرَفاً، وَلِلمَنَى نَفْحاً، وَلِلشُّكْرِ وَالرِّجَاءِ وَالرِّضَا مَسِكاً، وَلِلأَصَالِ عَطراً، وَلِلشَّفَاعَةَ عبيراً؛ فصارت المعنويّات وغير المحسوسات في ظلّ تلك الصّور عطوراً وزهوراً لها أريج، وعرف، ونفح، وعبير، وريحان، وعنبر، ونرجس، ومسك.

يقول ابن زيدون ملتصقاً شفاعاً أستاذة أبي بكر بن أحمد النحوي⁽²⁾:

وَإِنِّي لَرَجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدُودِهَا لِي الشِّيمَةُ الزُّهْرَاءُ وَالخُلُقُ السَّبُوطُ⁽³⁾
وَجِلْمُ امْرِئٍ تَعْفُو الدُّنُوبُ بَعْفُوهِ وَتُمَحِّي الخَطَايَا مِثْلَ مَا مُجِي الخَطُ
فَمَا لَكَ لَا تَخْتَضُّنِي بِشَفَاعَةٍ يَأُوحُ عَلَي دَهْرِي لِمَيْسِمِهَا عَاطُ⁽⁴⁾؟
يَقِي بِنَسِيمِ العَنَبَرِ الوُزْدِ نَفْحُهَا إِذَا شَعَشَعَ المِسْكَ الأَحْمَ بِهِ خَاطُ⁽⁵⁾

فالشاعر يرسم للشفاعة صورة حسية شمّية، معتمداً فيها على التراسل بين حاستي البصر والشّم؛ إذ تصبح (الشفاعة) وهي شيء معنوي في ظلّ هذه الصّورة مادة عطرية مشمومة ومرئية، فيخلق خيال القارئ بعيداً؛ ليتصوّرها على هيئة وردة تنمو، ثم تزهر، فيفوح عبيرها كما يفوح أريج الورد الأحمر إذا خالط المسك الأسود. ومثل هذا التراسل الحسي يُعمق المعنى، ويزيده ثراءً دلاليّاً وجماليّاً.

ويقول مهيناً المعتمد بن عباد بالنصر⁽⁶⁾:

1) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 417، 489، 492، 319، 357، 325، 326، 552، 357، 369، 464، 358.

2) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 369.

3) السبوط: السهل أو الحسن أو الكريم.

4) الميسم: المكواة، وعلط: كي في العنق.

5) العنبر: الطيب المعروف، والورد: الأحمر، وشعشع: مزج، الأحم: الأسود.

6) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص 552.

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشُرْ بِالظَّفَرِ وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّورِ (1)
وَنَفَّيَا ظِلَّ سَعْدٍ تَجْتَنِّي فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمُنَى أَخْلَى الثَّمَرِ
وَرِدِ الصُّبْحِ، فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ غَرِضٍ مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدْرِ (2)
كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ عَطِرِ الْأَصَالِ وَضَّاحِ الْبَكْرِ

فهو يرسم صورة فنيّة جديدة للأصال، معتمداً في بنائها على التراسل بين حاستي البصر والشم، وعلى الانزياح الدلالي بين المضاف "عطر" والمضاف إليه "الأصال"؛ فيجعل الأصال - وهي شيء مرئي - مادة مشمومة معطرة، فتغدو الصورة غريبة ومدهشة، وذات دلالة عميقة، تُوحى للقارئ بأنّ الشاعر كان يعيش في ظلّ الممدوح حياة ندية ناعمة معطرة المساء وضياء الصّباح، متمنياً أن يعود هذا الزّمن الجميل، الممتلئ بالانتصارات والمكارم؛ لينتشي بعطره وبهائه وسعده.

3- الصّور الدّوقية

اهتمّ ابن زيدون بالصّور الحسيّة الدّوقية القائمة على التراسل الحسي، والمرتكزة على الانزياح الدلالي تارة، والتشبيه تارة أخرى، ومنها قوله: (الخلق العذب، ومعسول النّصر، ولذّة الذّكري، والبرّ العذب، والصّبر شهد، والظرف الحلو، والوصل خمر، وسلاف النّعيم، وتسليم الوصال، وطيب الحديث، وشيم كالزّاح، والبلاغة خمر)⁽³⁾.

يقول مادحاً صديقه الوفي أبا عبد الله بن عبد العزيز⁽⁴⁾:

قُلْ لِي بِأَيِّ خِلَالٍ سَرُ وَكَ قَبْلُ أَقْتَنُّ أَوْ أَهْمِيْمُ
أَيْمَجُ دِكِ الْعَمَمِ الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ؟
أَمْ ظَرْفِكَ الْخُلُو الْجَنَى أَمْ عَرِضُكَ الصَّافِي الْأَدِيمِ؟
أَمْ بِرِكَ الْعَذْبِ الْجَمَا مِ وَبِشْرِكَ الْعَصِّ الْجَمِيمِ؟

(1) اجتلى الشيء: نظر إليه.

(2) الغرض: شدة النزوع نحو الشيء والشوق إليه.

(3) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص554، 282، 329، 270، 231، 358.

(4) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص270.

فهو يرسم صورة حسية ذوقية يصف من خلالها شمائل صديقه وخصاله الحميدة، معتمداً على التراسل الحسي القائم على الانزياح الدلالي بين النعت ومنعوته، وذلك في قوله: "ظرفك الخلو الجنى" و"برك العذب"؛ إذ يجعل ظرافة صديقه وهي شيء معنوي مادة حلوة الجنى والمذاق، كما يجعل بره ووفاءه له مادة مستعذبة صافية المشرب .

ويقول في الغزل⁽¹⁾:

الصَّبْرُ شَهْدٌ عِنْدَمَا جَرَعْتِي وَالنَّارُ بَرْدٌ عِنْدَمَا أَصَابْتِي
كُنْتُ الْمُنَى فَأَذَقْتِي غُصَصَ الْأَدَى يَا لَيْتَنِي مَا فَهْتُ فِيكَ: يَا لَيْتَنِي

فالشاعر يرسم للصبر صورة حسية ذوقية؛ فيجعله على شكل مادة سائلة تُشرب، فتكون حلوة كالشهد، معتمداً في إبرازها على تبادل مدركات الحواس، وهو بذلك يُعبّر عن لحظات تجربته مع تلك المحبوبة، التي علمته معنى الصبر بصددها وابتعادها عنه.

فالشاعر يُبادل بين حاستي السمع والشم في انزياح بين المضاف والمضاف إليه، وذلك في قوله "ريحان الثناء"، فيُعطي المسموع وهو الثناء صفة المشموم وهو الريحان، ويُصوّر جود المعتمد بالكوثر العذب، وهي صورة تعتمد على حاسة الذوق؛ لإدراك طبيعة كرم الممدوح وعطائه، الذي يُرافقه لذّة ونشوة لدى شاربه، أو المستفيد منه.

1) ينظر: ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص231.

خلاصة البحث

يمكن القول في ضوء ما تقدم إن ابن زيدون أكثر من استخدام التراسل الحسي في شعره، حتى غدا علامة أسلوبية بارزة، وظاهرة فنية لافتة؛ إذ بادل الشاعر بين الحواس كلها، وجعلها تتعارض وتتجاذب معطياتها وتتداخل؛ فتجاوبت فيها الأصوات والألوان والزواجر والعطور، وامتزجت بصور غريبة ومدهشة، حيث صار المسموع مرئياً، ومتذوقاً، ومشموماً، وصار المرئي مسموعاً، ومشموماً؛ فتحوّلت العين إلى فم نَمّام يتحدّث عن المحبوبة وجمالياتها، وعطر أخلاقها وصفاتها، ولسان فصيح ينطق عما بداخل الشاعر من لوعة الحبّ وعذابات الروح، ويد ماهرة تجيد الرمي بالنظرات القاتلة، التي تصيب قلب العاشق، وغدا الزمان صبحه وأصيله وليله كافوراً وعطراً ومسكاً.

كما رسم الشاعر صوراً حسية بصرية (حركية ولونية)، وشمية، وذوقية تقوم على تراسل الحواس المرتكز على الانزياح، والتشخيص، والتجسيد؛ لتعميق معانيه وتوسيع دلالاتها. ومثل هذا الأسلوب الخاص مكنه من ابتكار وسائل إحياء جديدة داخل اللغة، والإمعان في استيعاب المعاني، وتصوير حالاته العاطفية والانفعالية، ونقل أحاسيسه وتجاربه الذاتية.

ويبدو أنّ ميل ابن زيدون إلى هذه الظاهرة كان نابغاً عن معرفته العميقة بجماليات هذا الأسلوب الفني وأثره في تعميق الصورة وإبراز الدلالة المقصودة، والتعبير عما يجول في نفسه من مشاعر وأفكار، وقد ساعده

في ذلك قدرته اللغوية البارعة، وخياله الفسيح، وإحساسه الزهيف، وعاطفته الجياشة، فطوع مفردات اللغة بطاقتها الإيحائية الهائلة وتفاعل مع معطياتها الدلالية الثرة، وهي لغة مليئة بالرموز الغامضة، والصور المثيرة، والمجازات الغريبة، وهو بهذا يقترب من اتجاهات المدرسة الرمزية الحديثة ومبادئها العامة، التي تنجح إلى استخدام الرمز بصورة مكثفة، وتميل إلى الغموض الشفاف، وتعتمد على بناء الصور الفنية البعيدة والعميقة، التي تقوم على التراسل الحسي.

أولاً:- المصادر والمراجع

- أحمد، محمد فتوح: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ط2، مصر: دار المعارف، 1978م.
- الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود (ت297هـ/909م): الزهرة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط2، الزرقاء: مطبعة المنار، 1985م، بغداد، 2010.
- أمجد، حميد عبدالله: نظرية تراسل الحواس، الأصول، الأنماط، الإجراء، المركز العلمي العراقي، بغداد، 2010.
- البغدادي، عبد اللطيف: مقالتان في الحواس ومسائل طبيعية، تحقيق: بول غليونجي، وسعيد عيدة، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1972م.
- الخفاجي، شهاب الدين (ت1069هـ): ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ط1، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، 1967م.
- الخرشنة، أحمد: أسلوبية الانزياح في القرآن الكريم، ط1، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، 2014.
- الرّفاء، السريّ بن أحمد الموصلّي (ت362هـ/972م): كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب: (كتاب المحبوب)، تحقيق: حبيب حسين الحسيني، ط1، بغداد: دار الرسالة، 1982م.
- زايد، علي عشري: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ط5، القاهرة: مكتبة الآداب، 2008م.
- ابن زيدون، أحمد بن عبد الله المخزومي (ت493هـ)، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، الطبعة الثالثة، 2004م.
- شريف، محمد إسماعيل: تراسل الحواس في القصيدة الدرامية في الشعر العربي المعاصر في مصر، رسالة دكتوراه، جامعة المنية، كلية دار العلوم، 2018.
- شنوان، يونس: اللون في شعر ابن زيدون، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، إربد، 1999م.
- الصائغ، عبدالإله: الخطاب الشعري، الحداثوي والصورة الفنية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999.
- الصايغ، وجدان: الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث: رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003م.
- ابن الصيرفي، أبو القاسم، (ت542هـ)، كتاب الأفضليات، تحقيق: وليد قصاب، عبدالعزيز المانع، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982.
- العسكري، أبو هلال، (ت395هـ)، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوين، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.
- علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985.

- القاشاني، عبد الرزاق بن أحمد (ت730هـ): كشف الوجوه الغرّ لمعاني نظم الدرّ: شرح تانية ابن الفارض، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م.
- كوهن، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، ط1، الدر البيضاء: دار توبقال، 1986م.
- مندور، محمد: الأدب ومذاهبه، القاهرة: دار نهضة مصر، 2003م.
- مندور، محمد: الشعر المصري بعد شوقي: الحلقة الثالثة، القاهرة، دار نهضة مصر.
- المنصوري، أحمد: اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، صنعاء: إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، 2004م.
- الهلالي، صادق الليدي حسين: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم، ط2، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1421هـ.
- هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، القاهرة: دار نهضة مصر، 1997م.
- هيكل، أحمد: تطور الأدب الحديث في مصر: من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، القاهرة: دار المعارف، 1987م.
- الوصيفي، عبد الرحمن: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، ط1، القاهرة: مكتبة الآداب، 2003م.
- اليافي، نعيم: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، تقديم: محمد جمال الطحان، ط1، دمشق: صفحات للطباعة والنشر، 2008.

ثانياً:- المجلات والدوريات

- إبراهيم، صاحب خليل: التراسل الحسيّ في الشعر العربي القديم، مجلة أقلام، الأعداد: 6-8، حزيران، 1994.
- رمضان، أحمد: "بلاغة تراسل الحواس في القرآن الكريم: نماذج تطبيقية"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد 1، كانون الثاني، 2007م.
- عنوز، كاظم: "تراسل الحواس في شعر الشيخ أحمد الوائلي، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد6، 2007م.
- مختار، أحمد، الدلالات الاجتماعية والنفسية لألفاظ الألوان في اللغة، سلسلة اللسانيات، تونس، العدد6، 1986م.
- الياسين، إبراهيم: "تراسل الحواس في شعر ابن حمديس الصقلّي"، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 140، السنة 35، 2017م.